العقيدة الإسلامية ودورها في بناء الحضارة الإنسانية

الدكتور/ ماجد محمد علي احمد شبالة

أستاذ العقيدة والاديان والفرق (المساعد)

كلية الآداب - جامعة اب

2003
١٤٢٤
جامعة الأندلس
للعلوم والتقنية
Alandalus University For Science & Technology

(AUST)

العقيدة الإسلامية ودورها في بناء الحضارة الإنسانية

ملخص البحث :

العالم اليوم بحاجة إلى حضارة قائمة على أساس صحيح ، لأن الحضارة الغربية اليوم قائمة على إهمال كرامة الإنسان وقيمته ، واعتبار المادية النفعية هي الغاية الأساس ، والبشرية اليوم في حاجة إلى حضارة تعيد إليها إيمانها بالله وبرسالاته ، وبالقيم العليا التي لا يكون الإنسان إنساناً بغيرها ، ولا يكون للحياة مذاق ولا معنى بسواها.

حضارة تعطيها الدين ولا تفقدها العلم ، تعطيها الإيمان ولا تسلبها العقل ، تعطيها الروح ولا تحرمها المادة ، تعطيها الآخرة ، ولا تحرم عليها الدنيا ، تعطيها الحق ولا تمنعها القوة ، تعطيها الأخلاق ولا تسلبها الحرية .

غير أن ما تمتاز به حضارة عن حضارة هو قوة الأسس التي تقوم عليها ، والتأثير الذي تحدثه في الحياة ، والخير العميم الذي يصيب الإنسانية من قيامها .

وكلما كانت الحضارة ربانية في مصدر قيمها ، عالمية في رسالتها ، إنسانية في نزعتها ، أخلاقية في اتجاهاتها ، واقعية في مبادئها ، كانت أخلد في التاريخ ، وأنفع للبشرية ، وأجدر بالتكريم .

والعقيدة الإسلامية الصحيحة ، هي وحدها القادرة على بعث الحضارة الإسلامية من جديد ، لأنها وحدها القائمة على أساس التوحيد المطلق الذي يصحح العلاقة بين المخلوقات والإله الحق سبحانه ، ويصحح العلاقة بين المخلوقات وبعضها على أساس من التكريم، والقيم الأخلاقية ، وعلى العالمية في رسالتها ، والواقعية في مبادئها ، والإنسانية في نزعتها ، ففي ظل العقيدة الصحيحة يكون البناء الحضاري مشبعاً بروح القيام بحق الاستخلاف ، وإعلاء كلمة الله في الأرض ، وتهيئة الظرف المناسب لأداء الرسالة ، وتحقيق فاعلية الإنسان في الكون وفق منهج العبودية لله سبحانه وتعالى في كل جوانب الحياة .

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام محمد رسوله الامين الذي أرسله الله إلى الناس كافة ليهديهم سبيل الرشاد ، ويحذرهم سبل الغي والفساد ، ورضوان الله على صحابته أجمعين ، والتابعين الذين اهتدوا بهديه وساروا على نهجه ، فكانوا نجوم هداية ، وبناة حضارة للناس أجمعين ، وبعد :

فإنه من المؤكد أن حجر الأساس لبناء الحضارة في أي مجتمع إنما يرتبط بالقاعدة الفكرية التي يؤمن بها المجتمع ، سواء كانت عقيدة دينية ، أو تصوراً فلسفياً، أو غير ذلك ، حيث ترتبط أنظمة الحياة ومعايير السلوك البشري وانماطه وعلاقات البشر ، بالمفاهيم الأساسية عن الآلة والكون الحياة والإنسان ، وعلاقتها ببعضها البعض ، وبما أن صلاح الفرد يكون بصلاح عقيدته ، فكذلك المجتمع يسمو ويرتفع ، أو يهبط إلى وهدة الانحطاط تبعاً للعقيدة التي يقوم عليها .

ومن هنا فإن علاقة العقيدة بالحضارة الإنسانية قضية تستحق البحث والنظر ، خاصة والمجتمع المسلم اليوم يعيش حالة من التخلف الحضاري في مواجهة موجة الحضارة الغربية المادية التي انخدع ببريقها كثير من الناس .

ومع تنامي مد الصحوة الإسلامية المباركة ، وتعالي أصوات المصلحين الداعين إلى تصحيح مسار الحياة الإسلامية ، وبعث الحضارة الإسلامية من جديد ، تظهر لنا أهمية البحث في أسس ومقومات الحضارة الحقة ، وسبل بعثها.

وهذا البحث محاولة لبيان العلاقة بين العقيدة الصحيحة والحضارة الإنسانية الحقة ، التي تنشدها البشرية اليوم ، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في أربعة مطالب وخاتمة :

المطلب الأول : التعريف بالعقيدة والحضارة والعلاقة بينهما .

المطلب الثاني : خصائص العقيدة الإسلامية وأثرها في بناء الحضارة .

المطلب الثالث : أسس ومقومات الحضارة وأثر العقيدة فيها .

المطلب الرابع : آثار الانفصام بين العقيدة الصحيحة والحضارة .

الخاتمة : النموذج الحضاري المطلوب .

أسال الله تعالى أن ينفع به ، والله من وراء القصد .

المطلب الأول : التعريف بمصطلحات البحث .

أولاً : تعريف العقيدة الإسلامية :

١) **تعريف العقيدة لغة :** العقيدة في اللغة تدل على كل شيء أشتد وصلب ، كما تطلق على كل ما ثبت وقوي ، وعلى كل أمرٍ مستيقن يطمئن إليه القلب ، وعلى كل ما أتصل بغيره واستحكم .

وهذه عبارات أصحاب القواميس والمعاجم في هذا الصدد :

- يقول الجوهري : (اعتقد الشيء ، أشتد وصلب)[١].
- ويقول الفيروز أبادي : (عقد الحبل والبيع والعهد يعقده أي يشده)[٢]
- ويقول ابن منظور:(العقيدة من الشد والربط، وعقدة كل شيء إبرامه ، وتعقد الإخاء أي استحكم)[٣]
- ويقول الزبيدي : (العقيدة : تدل على التصميم ... ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم)[٤]
- وفي المعجم الوجيز : (عقد السائل عقداً غلظ أو جمد بالتبريد أو التسخين ، وعقد الزهر : تضاف أجزاؤه فصار ثمراً ، وعقد البناء: ألصق بعض حجارته ببعض بما يمسكها فأحكم إلصاقها ، وعقد البيع ، واليمين ، والعهد : أكدها، وفي القرآن ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ {المائدة:٨٩} . واعتقد فلان الأمر : صدقه وعقد عليه قلبه وضميره ، ... والعقدة : ما يمسك الشيء ويوثقه ، والعقيدة : ما لا يشك معتقده فيه...)[٥] .

---

(١) الصحاح ، لإسماعيل بن حماد الجوهري، دار الحديث، القاهرة ، ط١، عام ٢٠٠٩م،ص٧٩١

(٢) القاموس المحيط ، للفيروز آبادي ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١٩٧٨م ، ١/ ٣١٥ .

(٣) لسان العرب ، لابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ١٣/ ٢٩٨ -٢٩٩ .

(٤) تاج العروس ، مرتضى الزبيري ، دار الجيل ، لبنان ، ط ١٩٧٠م ، ٨/٣٩٤.

(٥) مجمع اللغة العربية ، المعجم الوجيز ، المركز العربي للثقافة بيروت ، ص ٤٢٦ – ٤٢٧ .

فمن هذه النقولات عن أصحاب القواميس والمعاجم اللغوية ، نخلص إلى أن العقيدة في اللغة تدل على : الشد والصلابة ، والربط والتوثيق ، والجمع بين أطراف الشيء ، سواءً كان مادياً أو معنوياً ، حيث تستعمل في الأشياء الحسية كعقد الحبل والخيط والبناء ، وتستعمل في الأشياء المعنوية كعقد البيع والنكاح ، والمعتقدات الفكرية القائمة على التصديق وعقد القلب على الشيء بحيث لا يقبل الشك .

٢) **تعريف العقيدة في الاصطلاح :** يختلف مفهوم العقيدة عند المسلمين عنه عند غير المسلمين ، لذلك لا بد من عرض مفهوم العقيدة عند الطرفين لمعرفة الاختلاف في تحديد المفهوم وذلك على النحو الآتي :

أ) تعريف العقيدة عند المسلمين : لفظ العقيدة في الاصطلاح العام عند المسلمين لا يبعد كثيراً عن المعنى اللغوي ، بل للجذر اللغوي نوع علاقة بالمعنى الاصطلاحي ، وهذا بيّن في كل المصطلحات الشرعية .

وقد تعددت التعريفات للعقيدة عند المسلمين ، ويمكن حصرها في اتجاهين :

<u>الأول :</u> يقصر مفهوم العقيدة على التصديق القلبي والقناعة الفكرية، فالعقيدة عندهم تعني:" التصورات الفكرية اليقينية التي يؤمن بها الإنسان ،عن الإله والكون والحياة والنفس والعلاقة بينها "[٦].

<u>الثاني :</u> يرى أن مفهوم العقيدة يشمل التصديق القلبي والتصور الفكري مضافاً إليه العمل ، فالعقيدة عندهم تعني : " التصورات الفكرية اليقينية التي يؤمن بها الفرد وتوجه سلوكه في الحياة " ، وذلك على اعتبار أن العقيدة لفظ

(٦) ينظر في ذلك:

- تقي الدين النبهاني ، نظام الإسلامي ، ط ٥ ، عام ١٩٥٣م ، ص ٢٢ ،
- يوسف القرضاوي ، الإيمان والحياة ، مؤسسة الرسالة ، ط٤ ، ١٣٩٩هـ ، ص ١٧٩
- محمد أبو يحيى ، الثقافة الإسلامية ، دار المناهج ، عمان ، ط ٢٠٠٠م ، ص ٤٨٧ .

مرادف للإيمان ، والإيمان يشمل في حقيقته الاعتقاد والعمل بناءً على ذلك الاعتقاد[٧].

والتعريف الثاني هو الراجح ، نظراً لارتباط العقيدة بالإيمان في الاصطلاح الشرعي ، فكل منهما ينوب عن الأخر ، والإيمان ما صدقه القلب ونطق به اللسان وعملت به الجوارح وانعقد عليه الضمير بوعي وعلم ، وكذلك العقيدة .

ب) **تعريف العقيدة عند غير المسلمين :** اقتصر معنى العقيدة عند غير المسلمين وخاصة الغربيين على الجانب الانفعالي ، فهو عبارة عن شعور داخلي يخضع لمؤثر خارجي، يدفع الإنسان إلى التصديق بقضية من القضايا، واصحاب هذا الاتجاه على قسمين :

الأول : يعتبر هذا الشعور مبنياً على الوهم والعاطفة ولا علاقة للعقل به ، ومنهم :

١. (غوستاف لوبون) حيث يعرف العقيدة بأنها : إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري ، يكره الإنسان على التصديق بقضية من القضايا من غير دليل[٨].

٢. (باسكال) حيث يقول : " إن الاعتقاد مبني على العاطفة لا العقل "[٩] .

ويلاحظ عند أصحاب هذا الاتجاه أنه لا علاقة للعقل بالاعتقاد ، بل يربطون العقيدة بالعواطف والميول، ويجعلون العقيدة في جانب ، والعلم المبني على العقل في جانب آخر ، وهو منهج متبع عندهم منذ القرن الثامن عشر الذي تم فيه الفصل بين الدين والعلم ، والموقف في مجمله كان رداً على الكنيسة التي حاربت العلم ، وحجرت على العقول ، فقامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وكانت

---

(٧) ينظر في ذلك :

❖الإيمان كما يصوغه الكتاب والسنة ، علي عبد المنعم ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ١٩٧٨م ، ص ١٩ .

❖عقيدة المسلم ، خالد العك ، دار الإيمان ، ١٩٨٨م ، ص ٨١ .

(٨) نقلاً عن لمحات في وسائل التربية د. محمد أمين المصري ، ص ٧٦ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

النتيجة الحجر على الكنيسة ، وإبعادها عن العلم والحضارة وقطع صلتها بالسلطة والحكم .

الثاني : يرى أن العقيدة مبنية على العقل والإرادة، بل يعتبر الرأي والمذهب أياً كان عقيدة، ومنهم (ديكارت) حيث يقول: "العقيدة هي الرأي المعترف به بين أفراد مذهب واحد كالعقيدة الماركسية " (١٠)

ومما سبق يتبين لنا : أن العقيدة في المفهوم الإسلامي هي التصورات الفكرية القائمة على الوعي والتدبر، التي يؤمن بها الفرد وتوجه سلوكه في حياته العملية .

أما العقيدة في غير المفهوم الإسلامي فهي : إما قاصرة على أوهام ، أو مبنية على عاطفة، أو رأي مجمع عليه بين البعض ، ولا علاقة لها بالحياة العلمية والعملية .

ثانياً : مفهوم الحضارة :

أ) **تعريف الحضارة في اللغة :** لفظ " الحضارة " في بنيته المعجمية العربية مشتق من مادة (حضر) ، وبالرجوع إلى هذه المادة نجدها تتعلق بمعانٍ أرجعها ابن فارس إلى أصل واحد هو : (شهود الشيء ، وإيراده ، ومشاهدته) (١١).

وهذا هو الأصل المستخدم في كل آيات القرآن الكريم للجذر (حضر) كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ {البقرة:١٨٠} ، وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ {النساء:٨} ، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ {آل عمران:٣٠} .

وعلى هذا أصل الكلمة ، فيقال : حضر، يحضر، حضوراً ، وحضارة ، من الحضور أي : المشاهدة ضد المغيب والغيبة ، والحاضر : هو الشاهد ، خلاف

(١٠) المعجم الفلسفي ، د. جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، ط ١٩٧٩م ، ٢\٩٢ .

(١١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ت : هارون دار الجيل ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٩م ، ٢\٧٥، وما بعدها .

البادي ، أي : الغائب ، والحضارة : شهود الحضر والإقامة فيه ، والحضارة خلاف البداوة ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ، ومساكن الديار التي يكون بها قرار[١٢] .

ب) تعريف الحضارة في الاصطلاح : تعددت تعريفات الحضارة عند العلماء والمفكرين ، واختلفت نظرتهم إلى الحضارة تبعاً لاختلاف أفكارهم ومبادئهم وثقافتهم ، وتنوعت تبعاً لذلك دلالات الحضارة بتنوع تعريفاتها ، ومجمل تعريفات الحضارة تدور حول ستة مظاهر هي :

١) المظهر المادي : فالحضارة تعني عند أصحاب هذا الاتجاه : " ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواءً كان الجهد مقصوداً أو غير مقصود"[١٣] .

أي أنها: مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم في نواحي نشاطها من عمران وعلوم وفنون ونحوها والترقي بها في مدارج الحياة حتى تصل إلى الغاية .

٢) المظهر الثقافي والعلمي : ويظهر هذا جلياً في تعريف مجمع اللغة العربية للحضارة بأنها : " جملة مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي ، التي تنتقل من جيل إلى جيل ، في مجتمع واحد أو مجتمعات متشابهة "[١٤].

وكذا في تعريف بعض الغربيين (توماس مان – كسير لنج) للحضارة بأنها : " المظاهر الفكرية التي تسود أي مجتمع " .

وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن الحضارة مرادف للثقافة ، ومقتصرة على الجانب الفكري أو المعنوي فقط .

---

(١٢) ينظر في ذلك لسان العرب، لابن منظور: ٢١٤/٣والقاموس المحيط للفيروزأبادي، ص ٤٨٢.

(١٣) الحضارة : د.حسين مؤنس ، عالم المعرفة الكويت ، ط ٢ ، ١٩٩٨م ، ص ١٥ .

(١٤) المعجم الوجيز ، مصدر سابق ، ص ١٥٧ .

٣) المظهر الحيواني: وأصحاب هذا الاتجاه هم الذين لا يؤمنون بالقيم والأخلاق والدين، يقول(نيتشه): " إن الحضارة هي القضاء على العدل والأخلاق ، وترك العنان لطبيعتنا الحرة السافرة لتفعل ما تشاء ، ولو أدى ذلك إلى أن نسير على الجماجم في سبيل تحقيق ذلك "[١٥].

وهذا المفهوم للحضارة يظهر عبر التاريخ المعاصر في المجازر الوحشية التي قام بها أصحابه في كثير من مناطق العالم .

٤) المظهر الروحي : وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن الحضارة تعني : " التصور السليم للحياة الدنيا وغايتها في نظام اجتماعي يقود الإنسان إلى الرقي"[١٦].

٥) المظهر الجمالي : ويمثل هذا الاتجاه ابن خلدون ، حيث ينظر إلى الحضارة على أنها " تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه ، من المطابخ والملابس والمباني ، والفرش وسائر العوائد "[١٧].

فالحضارة عند ابن خلدون مقتصرة على الجانب العمراني المترف في النشاط البشري فلا يدخل فيه النشاط الديني والعقلي والخلقي ، وهو مفهوم ضيق لمصطلح الحضارة .

٦) المظهر العام : وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن مفهوم الحضارة أعم ، يشمل الجوانب والمظاهر السابقة، فالحضارة تعني : " كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه ، عقلاً وخلقاً ، مادة وروحا ، ديناً ودنيا ، فهي في إطلاقها وعمومها – قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور وتقلب الأزمان ، وما صورت به علائقه بالكون وما وراءه"[١٨].

---

(١٥) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ، د. توفيق الواعي ، دار الوفاء مصر، ط١ ،عام ١٩٨٨م ، ص ٢٩ .

(١٦) المصدر السابق .

(١٧) مقدمة ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٨٦م ، ص ١٧٢ .

(١٨) الإسلام والحضارة الغربية ، د. محمد محمد حسين ، المكتب الإسلامي بيروت ، ط١، ١٩٧٩م ، ص ٤.

أو بتعبير سيد قطب : " ما يعطى للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم، تصلح لقيادة البشرية، وتسمح لها بالنمو والترقي الحقيقيين.. النمو والترقي للعنصر الإنساني، وللقيم الإنسانية، وللحياة (الإنسانية) " [١٩] .

وبناء على ما سبق ، نستطيع القول بأن مصطلح الحضارة يتضمن جانبين :

الأول : الجانب المعنوي ، ويتمثل في المبادئ والقيم والتصورات الفكرية والروحية، وهي الأمور التي تخدم الروح لتحقيق السعادة الحقيقة في الدنيا والآخرة .

والثاني : الجانب المادي ، ويتمثل في ثمرة الجهد البشري في جميع جوانب الحياة من مخترعات تخدم الجسد الإنساني ، وتحقق له المتعة والرفاهية ، وتخدم المجتمع الإنساني بتحقيق الإخاء والتعاون وحفظ الحقوق من خلال النظم الإدارية وطرق المعاملات بين البشر ، فما يميز أي حضارة ، ليس هو جملة المعارف والصنائع التي تحدثها ، في أثناء تحركها للحياة ، بقدر ما هو جملة المعايير والقيم التي تحيط بهذه المعارف والصنائع وتوجهها .

فالحضارة بهذه الاعتبار تطلق ويراد بها : كل حضور يحرك الواقع نحو معياره ، بكل مكوناته كما يحرك المعيار ليؤصل التزام الواقع به " [٢٠] .

وبهذا يصبح لكل حضارة تعريفها الخاص بها ، بناءً على نموذجها المعرفي الكائن فيها ، وقيمها التي أبدعتها ، ومذاقها الخاص الذي يميزها، ومن هذا التمايز في " القيم " يأتي " التدافع الحضاري" الذي هو من سنن الحياة .

ثالثاً : العلاقة بين العقيدة والحضارة :

من خلال تعريف الحضارة ، تبين لنا أن الأفكار والمعتقدات تشكل جزءاً من مفهوم الحضارة ، وبالتالي فأغلب الباحثين والعلماء والمفكرين يعتبرون الدين والعقيدة عنصراً من عناصر تكوين الحضارات ، بل العقيدة تمثل المفاعل الذي

---

(١٩) المستقبل لهذا الدين ، سيد قطب ، دار الشروق ، ص ٥٦ .

(٢٠) ينظر : مشكلة الثقافة ، مالك بن نبي ، دار الفكر ، دمشق ، ط٤ ، ص ٢١ وما بعدها .

يدمج عوامل تشكيل الحضارة ، وقد صاغ المفكر مالك بن نبي ، العوامل التي تشكل الحضارة بالمعادلة الآتية :

إنسان + مادة + وقت ——الفكرة الدينية——◄ناتج حضاري .

وأشار إلى أن هذه المعادلة لا تعطي ثمارها إلا بمفاعل أو مركب أسماه (الفكرة الدينية) ، سواءً كانت عقيدة سماوية صحيحة كالإسلام ، أو مبدأً يبلغ عند أصحابه مبلغ العقيدة كالشيوعية ، أو الرأسمالية ونحوهما [٢١] .

وفكرة المفاعل هذه قال بها أيضا (كسرلنج) حيث يرى أن حضارة أوروبا ترتكز على روحها الدينية [٢٢] .

بل ذهب(هنتنجتون) إلى اعتبار الدين عنصراً أساسياً في أي حضارة ، مؤكداً على عنصر التمايز بين الحضارات ، والمتجسد في الدين، حيث يقول:" إن الفروق بين الحضارات ليست فروقاً حقيقية فحسب، بل هي فروق أساسية، فالحضارات تتمايز الواحدة عن الأخرى بالتاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والاهم الدين"[٢٣]

وكان المؤرخ (ول ديورانت) أكثر دقة حين ذكر أن من عناصر الحضارة ، الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة ، أو بما هو بمثابة المثل الاعلى المنشود "[٢٤] .

وفي دراسة توثيقية (لأرنولد توينبي) أكد فيها العلاقة المتينة بين الدين والحضارة ، واعتبر هذه العلاقة بمثابة العلاقة بين المقدمة ونتائجها [٢٥] .

والدارسون للحضارات السابقة وآثارها ، يقفون على مكانة الدين والاعتقاد من تلك الحضارات .

---

(٢١) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، مالك بن نبي ، ص ٥٣ .

(٢٢) دروب النهضة ، محمد العبدة ، دار الإعلام ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ص ٢٤ .

(٢٣) صدام الحضارات ، صامويل هنتجتون ، ترجمة طلعة الشايب ، دار سطور القاهرة ، ١٩٩٨ م ، ص ٢٠

(٢٤) قصة الحضارة ، ول ديو رانت ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١،عام ٢٠٠٢م ،٢٠/١ .

(٢٥) نقلاً العلاقات الحضارية د. محمد ادريس ، دار القلم دمشق ، ٢٠٠٣م ، ص ٣٢ .

وقد حدد الدكتور / محمود زقزوق الأبعاد الأساسية للحضارة ، وجعل الدين أحد العناصر الفعالة والمقومات الأساسية في كل حضارة ، ومن ثم لا يجوز تجاهله أو تهميشه ، بأي شكل من الأشكال ، فهو مغروس في الفطرة الإنسانية[٢٦] .

وبالتالي فإن الدين والعقيدة لها تأثيرها في الحضارة ، سلباً وإيجاباً ، بناءً على نوع العقيدة التي تقوم عليها، فإذا كانت العقيدة صحيحة المبدأ ، صافية المشرب، كانت الحضارة أرقى وأنفع للبشرية، وكلما كانت العقيدة فاسدة المبدأ كدرة المشرب، كان ناتجها الحضاري غير نافع للبشرية .

وما دمنا نؤمن أن هناك دين صحيح هو الإسلام، وديانات باطلة هي ما سواه ، واتفقنا مع من يقول " إنه لا توجد حضارة إلا وللدين أثر فيها " فإننا نصل إلى أنه :" لا توجد حضارة حقيقية إلا وللدين الإسلامي أثر فيها، ولا توجد حضارة مزيفة إلا وللديانات المحرفة والباطلة أثر فيها". وتصبح المعادلة كالاتي :

إنسان + مادة + وقت ← دين باطل = حضارة مزيفة .

إنسان + تراب + وقت ← دين صحيح = حضارة حقيقية .

إذن : لا خلاف في رأينا على المكانة التي يحتلها الدين والعقيدة في بناء أي حضارة، قديماً وحديثاً ، بل إن بعض الباحثين والمفكرين يربطون بين الحضارة وبين الدين الحق فقط ، فيجعلون مصطلح الإسلام مساوياً لمصطلح الحضارة ، ومن هؤلاء : (برنارد لويس) ، حيث يرى أن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك [٢٧] .

وقد عقد سيد قطب -رحمه الله- فصلاً في كتابه القيم " معالم في الطريق" بعنوان : " الإسلام هو الحضارة " أوضح فيه أن المجتمع الذي يقوم على تعاليم الإسلام هو " المجتمع المتحضر " وأن المجمعات الجاهلية بكل صورها مجتمعات متخلفة .

---

(٢٦) الحضارة فريضة إسلامية د. محمود زقزوق ، مكتبة الشروق القاهرة ، ٢٠٠١م ، ص ٢٩ .

(٢٧) صدام الحضارات ، مرجع سابق ، ص ٣٣٩ .

يقول رحمه الله : " كنت قد أعلنتُ مرة عن كتاب لي تحت الطبع بعنوان : " نحو مجتمع إسلامي متحضر " ثم عدت في الإعلان التالي عنه فحذفت كلمة " متحضر" مكتفياً بأن يكون عنوان البحث - كما هو موضوعه - " نحو مجتمع إسلامي " ، ولفت هذا التعديل نظر كاتب جزائري (يكتبه بالفرنسية) ففسره على أنه ناشئ من " عملية دفاع نفسية داخلية عن الإسلام " وأسف لأن هذه العملية - غير الواقعية - تحرمني مواجهة " المشكلة " على حقيقتها !

أنا أعذر هذا الكاتب . . لقد كنت مثله من قبل . . كنت أفكر على النحو الذي يفكر هو عليه الآن . . عندما فكرت في الكتابة عن هذا الموضوع لأول مرة ! . . وكانت المشكلة عندي - كما هي عنده اليوم - هي مشكلة : " تعريف الحضارة " !

لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية في تكويني العقلي والنفسي ، وهي رواسب آتية من مصادر أجنبية . . غريبة على حسي الإسلامي . . وعلى الرغم من اتجاهي الإسلامي الواضح في ذلك الحين ، إلا أن هذه الرواسب كانت تغبش تصوري وتطمسه ! كان تصور " الحضارة " - كما هو الفكر الأوربي - يخايل لي ، ويغبش تصوري ، ويحرمني الرؤية الواضحة الأصلية .

ثم انجلت الصورة . . " المجتمع المسلم " هو " المجتمع المتحضر " . فكلمة " المتحضر " إذن لغو ، لا يضيف شيئاً جديداً .. على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حس القارئ تلك الظلال الأجنبية الغربية التي كانت تغبش تصوري، وتحرمني الرؤية الواضحة الأصلية[٢٨].

وجمهور العلماء والمفكرين المتتبعين للمسألة الحضارية ، يربطون بين الدين الحق وبين الحضارة الصحيحة ، الأمر الذي يجعلنا نعجب مما ذهب إليه بعض الكتّاب كأمثال (رفعت السيد) من رفض الاعتراف بوجود ما يسمى " حضارة إسلامية " لأن الإسلام ومعطيات مجتمع ما لا يساوي الإسلام ومعطيات مجتمع

(٢٨) معالم في الطريق ، سيد قطب ، دار القدس ، ٢٠٠٩م ، ص ٩٢ -٩٤ ، بتصرف .

آخر ، وبالتالي دعا إلى الاستعاضة عن " الحضارة الإسلامية " بالحضارة العربية".

وفي رأينا أن هذه المعطيات التي يزعم أنها متباينة بين المجتمعات لا تكفي كي تكون عنصراً حاسماً في الفصل بين مجتمع وآخر ، لأننا بنفس المنطق لن نجد حضارة عربية متطابقة ، لاختلاف معطيات البلدان العربية . فالتنوع داخل الحضارة الواحدة إذاً أمر طبيعي ولا شائبة فيه ، فهي بمثابة روافد تصب في مصب واحد .[٢٩]

والخلاصة : أن علاقة العقيدة والدين بالحضارة علاقة وطيدة ، فإن كانت العقيدة صحيحة ، كانت عنصر بناء حضاري سليم ، وإن كانت العقيدة باطلة كانت عامل هدم حضاري .

فالعقيدة السائدة في أمة من الأمم ، سواء كان مصدرها دين سماوي أم كانت من وضع البشر ، هي التي تحدد انطلاقة الحضارة في هذه الأمة ، ذلك أن العقيدة هي التي تحدد الأهداف العامة للحضارة ، وترسم معالمها الرئيسية وتصبغها ، فتبرز في الحضارة الخصائص الأساسية لهذه العقيدة أو تلك .

المطلب الثاني : خصائص العقيدة الإسلامية وأثرها في بناء الحضارة :

تنفرد العقيدة الإسلامية بعدة خصائص ومميزات ، كان لها أثرها في بناء الحضارة الإنسانية ، ويمكن استعراض هذه الخصائص وأثرها في بناء الحضارة فيما يأتي :

أولاً : التوحيد :

طبيعة هذا الدين وعقيدته تقوم على الإلوهية الواحدة ، وهذا هو الأصل الذي ترجع إليه كل التنظيمات والتشريعات الأخرى ، فعقيدة التوحيد هي محور كل شيء في حياة الفرد المسلم ، والأمة الإسلامية ، وغاية الوجود الإنساني هي

(٢٩) العلاقات الحضارية ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .

تحقيق التوحيد لله عز وجل الذي حدده قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ {الذاريات:٥٦} .

وتحقيق غاية الوجود الإنساني هو الذي تنشأ عنه الحضارة في الواقع البشري، وهو المعيار الذي تقوَّم به صعوداً أو هبوطاً ، واستقامة أو انحرافاً، وحين تختلف النظرة إلى غاية الوجود الإنساني ، تختلف النظرة إلى الحضارة .

فحين تكون غاية الوجود الإنساني هي عبادة الله ، بالمعنى الواسع للعبادة ، والذي يشمل كل نشاط يقوم به الإنسان في جميع مجالات حياته ما دام يتوجه به إلى الله تعالى ، ويستمد فيه من منهج الله ، يكون هذا النشاط الهادف نشاطاً حضارياً ينشئ الحضارة ، فما الحضارة إلا منجزات النشاط البشري الهادف ، لتحقيق غاية الوجود الإنساني في مختلف المجالات .

ومن هنا نستطيع القول – واثقين – أن ما تنتجه الجاهليات من منجزات مادية، أو عقلية ، وإن بدأ ضخماً ليس حضارة حقيقة ، لأنه يفقد الشرط الأساسي الذي يجعل هذا النشاط والمنجزات البشرية حضارة ، وهو أن يكون هدفها متجهاً إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني ، وليس معاكساً لهذا الاتجاه .

فتحقيق الجانب الروحي للإنسان وحده على حساب الجانب المادي لا يحقق غاية الوجود الإنساني كاملة ، والعكس كذلك ، كما أن اجتماع الجانبين معاً، ولكن على غير قاعدة صحيحة – هي قاعدة التوحيد الخالص – لا يشكل حضارة بالمفهوم الصحيح ، كما حدث في الجاهلية الفرعونية التي شملت عالم الروح والمادة ، لكن على قاعدة تأليه الفرعون والعبودية له من دون الله .

إنما الحضارة الصحيحة هي التحقيق السوي لغاية الوجود الإنساني في الأرض التي حدودها قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ {الذاريات:٥٦} .

وفسرها قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ ﴾ {الأنعام:١٦٣ -١٦٢} [٣٠] .

إن قاعدة التوحيد في العقيدة الإسلامية تقوم على أساس التوجه إلى الله تعالى بكل ألوان النشاط البشري والاستمداد منه في كل جوانب الحياة البشرية ، وحينما تقوم الحضارة على هذين الأصلين تكون حضارة صحيحة .

يقول سيد قطب : " حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده - متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية - تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً من العبودية للبشر . وتكون هذه هي " الحضارة الإنسانية " لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان ، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع . ولا حرية - في الحقيقة - ولا كرامة للإنسان - ممثلاً في كل فرد من أفراده - في مجتمع بعضه أرباب يشرعون، وبعضه عبيد يطيعون ! [٣١]

فلئن كان الإنسان مخلوقاً لعبادة الله ، فإن عمارة الأرض هي جانب من مفهوم العبادة الواسع الشامل ، الذي يحقق خلافة الإنسان في الأرض لعمارتها ، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ {هود:٦١} .

فالأرض لا تعمر حقاً إلا تحت المظلة الإيمانية القائمة على إقامة التوحيد في الأرض وإزالة مظاهر الشرك والوثنية فيها ، وهذا أهم ما تميزت به الحضارة الإسلامية التي انطلقت من منطق الإيمان والتوحيد ، واستظلت بظل العقيدة الصحيحة ، وهي تعمر الأرض وتحقق مقتضيات الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض .

---

(٣٠) مفاهيم ينبغي أن تصحح ، محمد قطب ، دار الشروق ، ط٦ ، ١٤١١هـ ، ص ٣٣٨ - ٣٤٢

(٣١) معالم في الطريق ، سيد قطب ، مرجع سابق ، ص ٩٤ .

ثانياً : الشمول والتوازن :

من خصائص العقيدة الإسلامية ، الشمول والتوازن ، شمولها للكيان الإنساني كله روحاً وعقلاً وجسداً ، وشمولها في عرض حقائق الوجود ورد كل ما فيه إلى الإله الواحد ، وتقرير عبودية ما سواه له سبحانه ، وتوازنها في علاقة الوحي بالعقل ، وكذا فاعلية الإنسان في الكون وفاعلية الكون في الإنسان ، وعبودية الإنسان لله وسيادته على الكون بأمر الله ، وأخيراً التوازن بين عالم الغيب وعالم الشهادة في حس المسلم"[٣٢] .

هذه الخاصية جعلت العقيدة الإسلامية تتسع فتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة ، فلا تقتصر مهمتها على حقل دون حقل ، ولا على اتجاه دون اتجاه . إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله ، فما لقيصر وقيصر ذاته في العقيدة الإسلامية كله لله ، كما أنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده ، أو تتولى شعائره ، وتهمل شرائعه ، أو تتولى ضميره ، وتهمل سلوكه ، ولا تتولاه فرداً وتهمله جماعة ، ولا تتولى حياته الشخصية ، وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته " [٣٣] .

بهذا الشمول والتوازن ، أصبحت الشعائر الدينية التي أوجبها الله سبحانه وتعالى على العباد جزءً من المفهوم الإسلامي للحضارة ، وإقامة شريعة الله في الأرض والحكم بما أنزل الله وهو المقتضى المباشر لـ " لا إله إلا الله " جزءً من المفهوم الإسلامي للحضارة ، وإقامة العدل الرباني في الأرض كما أراد الله أن يكون جزءً من المفهوم الإسلامي للحضارة ، بل إن إقامة الحياة كلها بكل ألوان النشاط فيها على قاعدة الأخلاق الفاضلة ، والقيم السامية جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة .

---

(٣٢) ينظر : تفاصيل خاصية الشمول والتوازن في العقيدة الإسلامية ، كتاب خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، دار الشروق ، ص ٩٥ ، وما بعدها .

(٣٣) السلام العالمي والإسلام ، سيد قطب ، دار الشروق ، ص ٧ ، ١٩٨٣م ، ص ٨ .

وإن طلب العلم بدين الله وأحكامه وبالسنن الإلهية في الكون والمادة الذي يعين على الاستفادة من كل ما سخره الله للإنسان في الكون واستخدامه في عمارة الأرض جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة .

بهذا الشمول والتوازن يظهر لنا المفهوم الشامل للحضارة في ظل العقيدة الإسلامية ، حضارة الإنسان الخليفة في الأرض ، الذي يقيم حضارته المادية في توازن مع القيم الروحية والأخلاقية . [٣٤]

وإذا كانت حضارات سابقة للإسلام أو معاصرة له قد ركزت على الجانب الروحي ، وأهملت الحياة الدنيا وعمارة الأرض بوصفها أموراً ألصق بالحس وأقرب إلى متاع الجسد - والجسد عندها ملعون ومحتقر - .

وحضارات أخرى ركزت على الجانب المادي للحضارة ، وأهملت عالم الروح والآخرة بوصفها أموراً شخصية بل ومعوقات لانطلاق الحضارة ، وأكبت على عالم الحس والمادة ، تبدع فيهما كل عبقريتها ، وتصب فيهما كل طاقتها ، بصرف النظر عن القيم والمثل والمبادئ . فإن الإسلام بعقيدته الصافية وهو المنهج الشامل الذي لا يهمل جانباً من جوانب الإنسان ، ولا يلبي جانباً منه على حساب جانب آخر ، وهنا تكمن عظمة الحضارة القائمة على العقيدة الإسلامية وميزتها على كل حضارة قامت في معزل عن تلك العقيدة .

ثالثاً : العالمية والإنسانية :

اتسمت العقيدة الإسلامية بسمة العالمية والإنسانية ، فهي عقيدة بني الإنسان من كل جنس ولون ، فليست عقيدة للسادة دون الضعفاء ، وليست للبيض دون السود ، بل هي عقيدة للبشر جميعاً ، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ {سبأ:٢٨} .

(٣٤) مفاهيم ينبغي أن تصحح ، محمد قطب ، مرجع سابق ، ص ٣٤٢ وما بعدها بتصرف .

يقول سيد قطب – رحمه الله - :" إنها الرسالة الأخيرة ، فهي الرسالة الشاملة التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل، ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية محدودة بفترة من الزمان– ما بين عهدي رسولين – وكانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسالات خطوات محدودة ، تأهيلاً للرسالة الأخيرة " [٣٥].

إن الناظر في العقيدة الإسلامية يجد أنها تحريراً شاملاً للإنسان من داخله، بتحريره من نزعاته وأهوائه ، وإبراز إنسانيته بإحياء المعاني الروحية والقيم السامية فيه ، ومن خارجه بتحريره من الخضوع والتعبد لغير الله وحده ، وبذلك بعث الركام الإنساني وعادت له الحياة الحقة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ {الأنعام:١٢٢} .

ولخاصية عالمية العقيدة الإسلامية وإنسانيتها عدة مظاهر لها أثرها في بناء الحضارة الإنسانية الحقة وهي :

١) قيامها على الألوهية الواحدة ، وعبودية ما سوى الله له : فالعقيدة الإسلامية تقوم على أساس إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية ، وتعامل الإنسان مع ربه، ومع الكون ونواميسه ، ومع الأحياء ، تعاملاً تتمثل فيه حقيقة العبودية لله وحده .

يقول سيد قطب – رحمه الله - : " حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده ، متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر ، وتكون هذه هي الحضارة الإنسانية ، لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان ، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع،

---

[٣٥] في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ١٣٧٩/٣ .

ولا حرية - في الحقيقة - ولا كرامة للإنسان - ممثلاً في كل فرد من أفراده - في مجتمع بعضه أرباب يشرعون، وبعضه عبيد يطيعون ! .. والمجتمع الإسلامي هو الذي يهيمن عليه إله واحد ، ويخرج فيه الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل، الذي ترتكز إليه حضارة الإنسان ، وتتمثل في كرامته ، كما قدرها الله له ، ويعلن خلافته في الأرض عنه ، ويعلن كذلك تكريمه في الملا الأعلى... " [٣٦] .

٢) ربط البشر برابط العقيدة والمنهج : فالرابط بين البشر في التصور الإسلامي هو آصرة العقيدة والفكرة ومنهج الحياة ، وبذلك يكون التجمع الإنساني على هذا الرابط ممثلاً لأعلى ما في الإنسان من خصائص الروح والفكر ... أما حين تكون آصرة التجمع بين البشر هي الجنس واللون والقوم والوطن وما إلى ذلك من الروابط فإنها لا تمثل الخصائص العليا للإنسان ، فالإنسان يبقى إنساناً بعد الجنس واللون والقوم والأرض ، ولكنه لا يبقى إنساناً بعد الروح والفكر ...

والمجتمع الإسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية والذي تعتبر فيه العقيدة هي الجنسية التي تجمع بين أجناس الأرض في أمة واحدة، ربها الله ، وعبوديتها له وحده .

وهذا المظهر من مظاهر إنسانية العقيدة الإسلامية ، له أثره الواضح في بناء الحضارة الحقة من خلال ترسيخ مبدأ المساواة بين البشر ، فلا يستعلي في ظل الحضارة الحقة عرق على عرق ، ولا لون على لون ، بل تسعد الإنسانية جميعها ، بخلاف الحضارة التي تقوم على غير العقيدة الحقة في هذا الباب ، حيث يعلو الأبيض فيها ويمتهن الأسود ". [٣٧] .

---

(٣٦) معالم في الطريق ، سيد قطب ، مرجع سابق ، ص ٩٤ -٩٥ ، بتصرف

(٣٧) من روائع حضارتنا ، د. مصطفى السباعي ، ص ٧٢ ، بتصرف .

٣) ترسيخ مبدأ (إنسانية الإنسان) كقيمة عليا في الحياة : فالإنسان في نظر العقيدة مخلوق مكرم ، اختصه الله تعالى عن غيره من المخلوقات بخصائص، ومميزات لا يشاركه فيها غيره من الكائنات ، وقد وردت آيات كثيرة تشير إلى تميز الإنسان عن غيره من حيث التكريم ، والتكليف ، والخلقة ، والوظيفة ، منها:

- **قوله تعالى** : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ {الإسراء:٧٠} .
- **وقول تعالى:** ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ {التِّين:٤} .
- **وقوله تعالى** ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ {الجاثية:١٣} .

وربط القرآن الكريم بين إنسانية الإنسان وتكريمه ، وبين الإيمان وحسن الالتزام بالتكاليف الربانية ، في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ {البيِّنة:٦ -٧} .

فالإنسان مكلف بالإيمان وبضبط سلوكه وتنظيم حياته وعلاقاته كلها بمقتضى إيمانه ليتم له التكريم .

وأثر ترسيخ العقيدة الإسلامية لمبدأ (إنسانية الإنسان) يبدأ من نقطة تصحيح مركز الإنسان في الوجود وتعيين مكانه ودوره ووظيفته وحقوقه وواجباته .

إنه - الإنسان - ليس إلهاً ينازع الآلهة وتنازعه ، وليس كذلك حيواناً جاءت سيادته على الأرض مصادفة ، وقد يقوم مقامه في هذه السيادة غداً

قطٌ أو فأرٌ ، وليس آلة تحسب قيمته بقوة الأحصنة التي يساويها في قوة التحريك والإرادة .

وليس عبداً للمادة ، ولا هو لوحة تطبع فيها المادة (أو الطبيعة) ما تريد ، وليس عبداً للآلة ، تصرف حياته وأفكاره وأوضاعه كما تتصرف هي وتتقلب، كلا... إنما الإنسان إنسان وليس إلهاً ، هو سيد هذه الأرض وهو عبد لله في آن ، ومسخر له كل ما فيها ، وعليه أن يخلف الله سبحانه وتعالى فيها ، وينمي فيها ويرقى ، وهو معانٌ بما وهبه الله من قوى وطاقات ، وبما في نواميس هذا الكون من عون له .

هو إنسان وليس حيواناً – فهو مخلوق فذ .. ولخلقته حكمة ، ومزود بطبيعة خاصة، وخصائصه معينة فوق طبائع الحيوان وخصائصه لأداء ووظيفة معينة في الأرض لا يؤديها الحيوان ، وله – من ثم – مقام كريم ، يعادل وظيفته الكريمة ، كان كذلك يوم نشأ ، وهو كذلك اليوم ، وسيكون كذلك غداً ، والذين خالفوا عن هذه الحقيقة يعودون إليها راغمين الآن . وهو إنسان وليس آلة ولا عبداً للآلة ، ولا من صنع المادة ، ومن التخبط أن نعامله كما نعامل الآلة .

وهو (إنسان) يشترك مع إخوانه في خصائص إنسانية عامة ، ويتميز كل فرد منهم بخصائص ذاتية إلى جانب الخصائص الإنسانية ، ومن ثم ينبغي أن تكون أنظمة الحياة ومناهجها مبنية على أساس ملاحظة الخصائص الإنسانية ، العامة أولاً ، والخصائص الفردية ثانياً ، فلا يسحق الإنسان ولا يسحق الفرد ، في عمل أو نظام [٣٨] .

وحين تحترم خصائص الإنسان العامة والخاصة تكون إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع ، وتكون الخصائص الإنسانية فيه موضع التكريم والرعاية ، يكون هذا المجتمع متحضر متقدماً ... وتكون هذه هي الصورة

---

(٣٨) الإسلام ومشكلات الحضارة ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط١٢ ، ٢٠٠١م ، ص ١٧٥ -١٧٧، بتصرف .

الوحيدة .. للحضارة – كما هي في ميزان الله – لأن الحضارة التي يريدها الله للناس تقوم على قاعدة أساسية من الكرامة والتحرر لكل فرد [٣٩] .

فالإبداع المادي – بكل مدلولاته – يجب أن يكون في خدمة الإنسان ، فهكذا أراد له خالقه .. وأن يكون ملحوظاً في هذا الإبداع وفي بناء الحضارة التي تقوم عليه تنمية خصائص الإنسان .

وإلا يكون في هذا الإبداع المادي ولا في الحضارة التي تقوم عليه ما يناقض هذه الخصائص أو يدفنها أو يحطمها أو يهينها ويحقرها ، ولا أن يجعل دور الإنسان في هذه الأرض دوراً ثانوياً أو تابعاً للإبداع المادي ، في أي حال من الأحوال.

وليس هناك تعارض إطلاقاً بين أن يظل "الإنسان " سيد هذه الأرض، وأن تنمى خصائصه العامة والفردية ، وبين أن ينمو الإبداع المادي ويترقى .. بل هناك تناسق بين هذا وذلك ، حين تستقيم النظرة إلى الإنسان ، ومركزه في الوجود ، ودوره في الأرض ، وخصائصه التي زود بها من خالقه ، وواجبه الذي خلق من أجله .." [٤٠] .

وهذا ما أغفلته الحضارة المادية كما سيأتي بيانه عند الحديث عن مصير الحضارات بدون العقيدة .

٤) تقرير القيم والأخلاق الفاضلة : نقصد بالقيم الأخلاقية : " المعايير والموازين الموجهة لحركة الإنسان ، والضابطة للفعل الحضاري ، بكل تنوعاته وامتداده ، وفق رؤية الإسلام ومقاصده ، تحصيلاً للمعية الإلهية ، وترسيخاً للذات الإنسانية ، واستقامة التعامل مع الكون ومن فيه" [٤١] .

٥) وترتبط القيم الأخلاقية ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة الإسلامية ، فالمسلم يؤمن بوجود الألوهية وراء كل شيء ، فحيثما توجه وجد ربه ، مراعياً أمره ونهيه ،

---

(٣٩) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، مرجع سابق ، ٣\١٢٥٧ .

(٤٠) الإسلام ومشكلات الحضارة ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ – ١١٠ بتصرف .

(٤١) قيم الإسلام الحضارية ، د. محمد الخطيب ، كتاب الأمة ، العدد ١٣٩عام ١٤٣١هـ ص ٢٣

لأنه يعلم أن رؤية الله لا تنقطع ، ومن ثم فهو في كل أعماله مطالب بأن يراقب نفسه ، ويراقب ربه ، فهو دائر بين تلقي الخطاب من الله في كل شؤون حياته ، وتحمل الرؤية في كل أعماله .

٦) ويتأسس على ذلك أن مرجع كل القيم في التصور الإسلامي ليس الرأي والهوى ، ولا العقل البشري بلا قاعدة ولا ضابط ، وليس هو المصلحة كما يتصورها الناس ، غير محكومة بأصل من دين الله ، وليس عرف البيئة أو أي اعتبار آخر هو الذي يحدد القيم الأخلاقية ، إنما المرجع وراء ذلك كله هو الميزان الثابت المعصوم " الوحي " بما يصنعه من ضوابط ، وهذا ما يمنح القيم الأخلاقية في ظل العقيدة الإسلامية صفة الرسوخ والثبات ، والقدرة على العمل في كل زمان ومكان ، ومن ثم يرفض الإسلام أي قيمة تستلب إنسانية الإنسان ، أو لا تجسد إنسانيته ، بل إن الأحكام الشرعية لا تنفك عن القيم الأخلاقية ، فجانبها الأخلاقي يؤسس الجانب الفقهي ، كما أن جانبها الفقهي يوجه الجانب الأخلاقي .

وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [٤٢] ، إشارة طريفة إلى أن رسالة الإسلام القيمية رسالة استئناف واستصحاب ومواصلة لا رسالة ابتداء وانقطاع ، فهي تنظر إلى ما أبدعه الإنسان من قيم عظيمة ، وأخلاق تحقق المقاصد الإنسانية ، فتضمها إلى منظومتها ، ثم تواصل سيرها ، في هذه الكون الفسيح بحثاً عن قيم حضارية تحقق بها إنسانية الإنسان وكرامته ..

يؤكد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ، وقد حضر حلفاً في الجاهلية في دار بن جدعان لنصرة المظلوم ، ومحاربة الظلم : " لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت". [٤٣]

---

(٤٢) رواه أحمد والبيهقي والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم وصححه الالباني : ينظر السلسة الصحيحة ، للألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، طبعة عام ١٤١٥هـ ، ١/١١٢ .

(٤٣) رواه أحمد ، وصححه الحاكم في المستدرك ، برقم ٢٨٧٠ .

ما يدل على أن كل قيمة أخلاقية لا تصادم حقائق العقيدة وأحكام الشرع ومقاصده معتبرة شرعاً "[٤٤].

والغاية من تقرير الإسلام للقيم الأخلاقية هي تنمية الجوانب الإنسانية في الإنسان ، والتي تميزه عن الحيوان ، فحين تكون " القيم الإنسانية " ، " والأخلاق الإنسانية " ، التي تقوم عليها هي السائدة في المجتمع ، يكون هذا المجتمع متحضراً ، لأنه لا يحتقر المادة لا في الصورة النظرية باعتبارها هي التي يتألف منها الكون الذي نعيش فيه ونتأثر ونؤثر فيه ، ولا في صورة الإنتاج المادي باعتباره من مقومات الخلافة في الأرض ، لكنه لا يعتبرها – أي المادة – هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته ، وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته ، وتهدر فيها قاعدة الأسرة ومقوماتها، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته ، ... إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم والفضائل والحرمات لتحقق الوفرة في الإنتاج المادي .

فالحضارة الحقة هي التي تصعد بالخصائص الإنسانية وتحرسها من الانتكاس إلى الحيوانية لأن الخط الصاعد في القيم والاعتبارات يمضي من الدرك الحيواني إلى المرتفع الإنساني .

فإذا انتكس هذا الخط – مع حضارة المادة – فلن يكون ذلك حضارة ، إنما هو التخلف أو " الجاهلية " .

فالمجتمعات التي تسود النزعات الحيوانية لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة مهما تبلغ من التفوق الصناعي والعلمي ، لأن المفهوم الأخلاقي فيها ينحسر إلى أن يتخلى عن كل ماله علاقة بالتميز الإنساني عن الطابع الحيواني ، ويكاد ينحصر المفهوم الأخلاقي فيها على بعض المعاملات الاقتصادية والسياسية أحياناً وفي حدود المصلحة الخاصة . [٤٥]" .

([٤٤]) قيم الإسلام الحضارية ، د. محمد الخطيب ، مرجع سابق ، ص ٢٨ -٣٢ بتصرف .

([٤٥]) معالم في الطريق ، سيد قطب ، مرجع سابق ، ص ٩٦ -٩٨ بتصرف .

فالقيم الأخلاقية السامية لها بعداً إيمانياً في بناء الحضارة الإنسانية الحقة، وهذا ما يعطي المفهوم الإسلامي للحضارة بعداً خاصاً عن سائر أنماط التحضر الأخرى .

رابعاً: الواقعية الحركية :

" إن العقيدة والتصور الإسلامي للإلوهية والوجود الكوني وللحياة والإنسان تصور واقعي إيجابي ، وهو يكره . بطبيعته . أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي ، لأن هذا يخالف طبيعته وغايته ، ويجب أن يتمثل في أناسي ، وفي تنظيم حي ، وفي حركة واقعية ".[٤٦]

ومن مظاهر الواقعية في العقيدة والتصور الإسلامي :

١. التعامل الواقعي مع الوجود الحقيقي القائم وخصائصه الموضوعية (الإله . الكون . الإنسان)
٢. الواقعية في تحقيق المنهج الإسلامي من خلال التكاليف الواقعية التي تقوم على مراعاة القدرة البشرية ، والحالات المختلفة للإنسان والظروف التي يصادفها في جميع البيئات والأحوال .
٣. الاعتراف بالإنسان إنساناً لا حيواناً ولا حجراً ولا شيطاناً، حيث تعترف به كما هو بما فيه من ضعف وقوة ، وتأخذه وحدة شاملة من جسد ذي نوازع ، وعقل ذي تقدير ، وروح ذي إشراق ، وتفرض عليه من التكاليف ما يطيق، وتراعي التنسيق بين التكاليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات، وتلبي حاجات الجسد والعقل والروح في تناسب يمثل الفطرة ، ثم تحمل الإنسان بعد ذلك تبعة اختياره للطريق الذي يختار.[٤٧]

---

(٤٦) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، مرجع سابق ، ٢ \ ١٠١١٣ .

(٤٧) المصدر السابق ٣٤٤/١ ، وخصائص التصور الإسلامي ، ص ١٦٩ -١٨٧ بتصرف .

هذا التصور الواقعي بمظاهره هو الذي يدفع الإنسان إلى الحركة في الحياة البشرية ، يتم من خلال هذه الحركة ترجمة هذا التصور في الواقع ، والمضي قدماً في بناء الحضارة الحقة .

المطلب الثالث : أسس ومقومات الحضارة وأثر العقيدة فيها

إن أي حضارة صحيحة لابد أن تقوم على أساسين هما :

١) الأساس النظري المعرفي العلمي: والذي يشمل منظومة المفاهيم العقائد والتصورات والقيم التي توجه السلوك البشري في الحياة .

٢) الأساس المادي التطبيقي: والذي يتمثل في الإنجازات المادية في حياة البشر في مختلف مجالات الحياة الإنسانية .

ولا شك أن للعقيدة أثرها سلباً وإيجاباً على هذين الجانبين المكونين للحضارة بناءً على نوعية العقيدة ومدى صحتها ويتضح ذلك من خلال الآتي :

أولا : أثر العقيدة في الجانب النظري من الحضارة :

تمثل العقيدة حجر الزاوية في بناء أي حضارة فإذا كانت العقيدة ربانية صحيحة فإنها تعطي الإنسان تصوراً صحيحاً عن إلهه ونفسه، وعن الكون والحياة حوله، وعن علاقة كل واحد منها بالبقية، وهذا التصور الصحيح يثمر حركة في الحياة وفق رؤية صحيحة من خلال نموذج معرفي قائم على وصل الإنسان بربه ، ووصله بأخيه الإنسان ، والاستقامة في التعامل مع مفردات الكون انتفاعاً واستثماراً . تحصيلاً للمعية الإلهية ، وترسيخاً للكرامة الإنسانية ، وعمراناً للكون والحياة بعيداً عن ألوان التضليل والبغي الحضاري وأخلاقياته في تحريك الحياة بدون التصور الصحيح ، ولن يكون ذلك التحريك الحضاري للحياة إلا من خلال العلم النافع ، والذي يتمثل في كل علم يبعث على العمل وفق منهج الله في أمره ونهيه ، ولهذا نجد النصوص الشرعية ، تحث على العلم وتربط بينه وبين العقيدة والإيمان كما في قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ {آل عمران:٧} .

حيث يظهر الرباط القوي بين العلم والعقيدة في هذه الآية ، فالعلم هو الطريق إلى المعرفة الصحيحة ، فكلما كان العلم أعمق وأكثر رسوخاً كان أكثر دلالة على العقيدة الحقة .

" فالعلم السطحي يحول بين القلب وبين المعرفة الصحيحة ، ونحن نشهد هذا في كل زمان ، والذين تعمقوا في العلم يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية، أو على الأقل يجدون أنفسهم أمام علامات استفهام كونية كثيرة ، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلهاً واحداً مسيطراً مدبراً متصرفاً .. فتهفوا قلوبهم للإيمان)" .[٤٨]

وتأكيد العقيدة الإسلامية على العلم والبحث وتوجيه الإنسان نحو أسرار الطبيعة والاستفادة مما في الكون لعمارة الحياة له أثره الإيجابي في سعي الإنسان لبناء حضارة يرتبط فيها الجانب المادي والجانب الروحي والقيمي، تثمر سعادة للبشر .

كما يظهر أثر العقيدة في الأساس النظري للحضارة في تصحيح المفاهيم والتصورات والقيم الإنسانية ، ابتداءً من نظرة الإنسان إلى نفسه ،وتصوره الصحيح لوجوده وغايته ومركزه في الكون والحياة . ومروراً بتعميق القيم الأخلاقية في تعامل الإنسان مع إلهه، ومع المخلوقات من حوله ،ومع الكون بما فيه ومن فيه، من خلال منظومة القيم المنبثقة من العقيدة الإسلامية، والقائمة على العدل والأمانة والتعاون وحفظ الكرامة والحقوق ، وتوفير الضمانات

---

(٤٨) في ظلال القرآن ٢/٩٠٤ بتصرف .

الوقائية المانعة من حدوث الظلم والبغي والفساد من البشر في كل جوانب الحياة الإنسانية .

كما يظهر أثر العقيدة أيضاً في تصحيح مفهوم الاستخلاف السياسي ، وطريقة الحكم والسياسة .

فالعقيدة الصحيحة تصبغ الحكم والعمران بالصبغة الإلهية ، وتضبط الخلافة الإنسانية بالشرع الرباني ، وهذا ما نجده في منهج الإسلام الشامل ، بخلاف المناهج التي تعزل الدين والعقيدة عن الحكم والاستخلاف ، والتي تقوم على النظرة الدنيوية الخالصة للإنسان ولسياسة العمران البشري، وتستبعد معايير الدين والاعتقاد من كل شئون الحياة حيث تكون مقاصدها دنيوية تحكم سياسة عمران دنيوية فقط .

ولا شك أن للعقيدة أثرها سلباً وإيجاباً أيضا فيما يتعلق بمساءلة الحكم والسياسة والاستخلاف على الفرد والمجتمع ، بل على سير الحضارة ومضمونها وجوهرها .

" ذلك هو جوهر ومنطلق الخلاف بين مضمون السياسة في الحضارة الإسلامية القائمة على العقيدة الصحيحة ومضمون السياسة في الحضارات الأخرى التي تستبعد الدين والعقيدة من مكوناتها .

يبدأ الخلاف حول تصور كل حضارة للإنسان ، أخليفة هو عن الله سبحانه وتعالى فتكون دنياه معبراً إلى الآخرة التي هي خير وأبقى ،فيسوس عمران الدنيا بشريعة الله ، قياماً بتكاليف عقد وعهد الاستخلاف على النحو الذي يجعل هذه السياسة سياسة شرعية ؟

أم هذا الإنسان هو سيد هذا الكون الذي تقف معارفه وعلومه عند ظاهر الحياة الدنيا ، وتكون غاية سياسته للعمران تحقيق المقاصد الدنيوية ولا شيء وراءها

حتى يفصل الدين عن العمران كله ، وليس فقط عن الدولة والحكم والسياسة"[٤٩].

وبمعنى أكثر وضوحاً نقول : إن الحضارة الإسلامية تحكمها قواعد لا نجد لها نظيراً في أية حضارة أخرى ، لأنها تقوم على مفهوم عقدي للخلافة ، بينما تنشأ الحضارات الأخرى مقطوعة الصلة بالله تعالى ، وهذا يوصلنا إلى أن التحضر الإسلامي يختص في نشوئه وديمومته بفقه يهتم بالقوانين المنهجية التي تحكم بناءه وحركته مستمدة من المعاني العقدية التي تقوم بها حقيقة الخلافة ، وهذا الفقه هو أساس الحركة للإحياء والنهضة من خلال مبدأين هما :

١. مبدأ الارتقاء بالفرد لتحقيق الاستخلاف الحضاري ، من خلال تنمية الجوانب الروحية بالعبادات والقيم الأخلاقية ، وتنمية الجوانب العقلية بالعلم والمفاهيم والمعارف ، واستخراج القدرات الكامنة في الإنسان وتوجيهها إلى اكتشاف القوانين العمرانية وربطها بالإيمان والعبادة لتحقيق الخير للبشرية.

٢. مبدأ الارتقاء بالجماعة من خلال تحقيق رقي الأفراد حضارياً ، باعتبارهم لبنات في الارتقاء الجماعي للأمة ، ثم جمع الأفراد على فقه الخلافة الجماعية المشتق من العقيدة والمعبر عنه في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ {الحجرات:١٣}.

فالتعارف بين البشر هو قوام الحياة الجماعية ، لتحقيق أغراضها في سياق العبودية لله بطاعة أوامره وتشريعاته وتلك هي التقوى في الآية ذاتها .[٥٠].

---

(٤٩) الإسلام والسياسة ، د. محمد عماره ، دار التوزيع القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص ١٦ بتصرف.

(٥٠) الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي ، د. عبد المجيد النجار ، مجلة الجامعة الإسلامية ، ماليزيا ، العدد الأول ، يناير ١٩٩٧م ، ص ٨٩ وما بعدها بتصرف .

ثانياً: أثر العقيدة في الجانب المادي للحضارة :

إذا كان للعقيدة أثرها في الجانب النظري لأي حضارة ، باعتبارها الموجه لحركة الإنسان في الحياة ، وفق التصور الذي تقدمه العقيدة للإنسان ، فإن للعقيدة أثرها أيضاً في الجانب المادي للحضارة سلباً وإيجاباً كذلك بناء على نوع العقيدة، فالعقيدة الصحيحة تجعل " الاستعمار الإيماني للأرض " هو القيمة الحضارية الكبرى التي تؤطر حركة تعامل الإنسان مع الأشياء ، بحيث يصبح المقصد العام لسعي الإنسان وحركته هو إصلاح الأرض وعمارتها ، وتحقيق التمكين فيها ، وتعبيد الفعل البشري لله سبحانه ، بحيث تكون جميع فعاليات الكون متجهة إلى الله عبادة كما شرع ، وعمارة الأرض كما أمر ، من خلال التعمير المادي للأرض ، واستغلال منافعها ، وتسخير مرافقها، واستثمار خيراتها ، وفق منهج الله في غير سرف ولا عبث ، وكل حركة في الأرض لا تكون وفق منهج الله لا تكون استعمارا للأرض بل هي إفساد لها ،ولذلك ارتبطت وظيفة العمران المادي للأرض بالعبادة ، وفق المبدأ الإسلامي " كل تصرف للعبد تحت قانون الشرع فهو عبادة " [٥١] . مما يجعل الله سبحانه هدفاً وغاية للتحرك الحضاري الصالح على الأرض وفق قيم الاستخلاف الإلهي للإنسان في الكون ، وهذا يعني أن الفعل المادي للإنسان في الحياة في ظل العقيدة الصحيحة يختلف عن الفعل المادي في ظل عقيدة فاسدة أو بدون عقيدة .

ففي ظل العقيدة الصحيحة لا تقف غاية الاستعمار الإيماني في الأرض عند إطار الدنيا فقط ، كما هو الحال في الفلسفة المادية التي تقوم في مجملها على انتفاء الغائية في الوجود بأكمله ، بل هي في عمومها تقوم على اعتبار أن هذه الحياة الدنيا غاية في ذاتها ، لا يمتد منها أثر إلى ما وراءها ، بل هي عند بعضهم عبثية في وجودها و في سيرورتها !! مما أدى إلى إطلاق العنان للفعل الإنساني منفصلاً عن أية قيمة أو غائية ، وبعيداً عن أي قيد أخلاقي يمكن محاكمته

(٥١) الموافقات للإمام الشاطبي ، دار المعرفة بيروت ، ١٩٤/١.

إليه، مما أدى إلى فقدان التوازن في التعامل مع الأشياء في الكون ، نظراً لأن التقدم المادي المنقطع عن القيمية والغائية يؤثر سلباً في الكون ومفرداته واستمرارها، بل وفي الإنسان نفسه.

أما غاية الفعل المادي في ظل العقيدة الصحيحة فهي محكومة بقيم الوحي الإلهي ، التي تجمع بين الدنيا والآخرة ، وبين مقتضيات الروح وحاجيات المادة .

فالمسلم في سعيه الحضاري لتعمير الحياة واستثمار مواردها ، ينطلق من إيمانه بالله الذي سخر له كل ما في الكون من موارد ، وأمره باستثمارها سعياً لعبادته ، وتحقيقا لخلافته ، مما يعطيه قوة دفع في تحريك الحياة ، مقترنة بتوفيق الله ومعونته ، وسعادة وسكينة في حياته تمكنه من السعي في الأرض وتعميرها ، وفي الوقت نفسه يصبح هذا الإيمان بالله ضماناً لعدم تحول الطاقة الإنسانية من طاقة بناءٍ وتعميرٍ واستخلافٍ إلى طاقة استغلالٍ وكفر بالله ، وأداةٍ للتنافس المحموم على نهب موارد الأرض وتدمير مقدراتها، والتفرد بالتمتع بخيراتها واستعباد الخلق، فكل حركةٍ في الحياة تأتي بعيداً عن الوحي والقيم المعصومة التي تحدد الهدف وتوجه المسيرة وتشد الإنسان إلى السماء، تؤدي في النهاية إلى تدمير الحياة واستغلال الخلق وإفساد الأرض [٥٢].

ولا ريب في أن انعكاس مبادئ العقيدة الصحيحة على النشاط الحضاري المادي يمنح الحضارة خصائصها النوعية المتميزة التي يمكن أن تساهم في سعادة البشرية، وذلك لأن هدف العقيدة الصحيحة هو تكوين الإنسان المؤمن المتوازن ، وبالتالي يصبح النشاط الحضاري المادي الصادر عن هذا الإنسان منضبطاً بالرؤية الإيمانية مما يساعد على تحقيق هدف العقيدة ، ويتضح أثر ذلك في النظر إلى ما فعلته الحضارات المادية اللادينية بالإنسان والجماعة البشرية على مر التاريخ البشري.

---

[٥٢] قيم الإسلام الحضارية ، د. محمد الخطيب ، مرجع سابق ، ص ١١٩ وما بعدها بتصرف .

المطلب الرابع :آثار الانفصام بين العقيدة الصحيحة والحضارة

استخلف الله عز وجل الإنسان في الله ليعمرها وفق منهجه سبحانه ، قال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ {هود:٦١} . **أي جعلكم لتعمروها ، ولن تكون عمارة الأرض وتحقيق الخلافة فيها إلا بأربعة أمورٍ هي :**

١ -إخلاص العبودية لله تعالى وحده .

٢ -تحكيم شريعته سبحانه في كل شؤون الحياة.

٣ -العيش وفق القيم الأخلاقية التي قررتها الشريعة .

٤ - تعرف الإنسان على نواميس الكون المادي ، واستخدام خامات الأرض وخيراتها في ترقية الحياة ، والاستفادة مما وهبه الله له من وسائل المعرفة لبلوغ قمة الحضارة التي تجمع بين الرقي الروحي والإبداع المادي .

أما أذا قامت الحضارة على الإبداع المادي فقط فإنها حضارة عرجاء تسير برجل واحدة ، وترى بعين واحدة ، لأن الإبداع المادي وحدة لا يسمى حضارة ، بل قد يكون وتكون معه الجاهلية ، فقد أخبر الله تعالى عن حضارات عدة ، خلدت آثاراً ومصانع وآيات عجيبة ، إلا أن هذه الحضارات قامت على غير عقيدة صحيحة ، فاهتمت بالمادة وتفننت في الإبداع العمراني ، فتحولت إلى رمز للطغيان وفساد الحياة ، وكانت النتيجة لمثل هذه الحضارات الدمار الشامل، ومن شواهد تلك الحضارات التي أشار إليها القرآن الكريم ما يأتي :

١) **حضارة قوم عاد : قال تعالى مصوراً ما بلغه قوم عاد من حضارة** ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ {الفجر:٦-٨}، **ذات العماد : أي الشدة أو الأبنية الرفيعة المحكمة بالعمد .**[٥٣].

(٥٣) فتح القدير ، للإمام الشوكاني، دار الخير ، دمشق ، ط١، عام ١٩٩١م ،٥٠٨/٥.

ويستعرض القرآن صوراً من الإبداع المادي لتلك الحضارة فيقول على لسان نبيهم هود –عليه السلام – : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ {الشعراء:١٢٨ –١٣٦} .

فماذا كانت نتيجة تلك الحضارة المادية ؟

قال تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ {فصِّلت:١٥ –١٦} .

٢) **حضارة قوم هود : ذكر الله تعالى ما عند قوم هود من صور الحضارة على لسان هود عليه السلام بقوله** ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ {الشعراء:١٤٦ –١٤٩} .

فماذا كانت نتيجة تلك الحضارة المادية ؟

قال تعالى ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ {الشعراء:١٥٨} .

٣) **حضارة قوم فرعون : أشار القرآن الكريم إلى ما بلغه فرعون وقومه من مظاهر الحضارة في عدة مواضيع منها:**

- **قوله تعالى :** ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ {يونس:٨٨} .
- **قوله تعالى** ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ {غافر:٣٦ -٣٧} .
- **قوله تعالى:** ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ {الزُّخرف:٥١} .
- **فماذا كانت نتيجة تلك الحضارة المادية التي تقم على عقيدة صحيحة ، قال تعالى:** ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ {الفجر:١٠ -١٤} .

٤) <u>حضارة قوم سبأ</u> : **قال تعالى :** ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ {سبأ:١٥ -١٧} .

وقد ذكر أهل التفسير مظاهر الحضارة التي كانت لقوم سبأ ، والمتمثلة في السدود ومصارف المياه، والجنات وانعدام الآفات وتيسر سبل العيش والتواصل والمتاع الجميل. (٥٤)

(٥٤) المصدر السابق ،٣٦٦/٤ . وفي ظلال القرآن ، سيد قطب ،٢٩٠٠/٥ .

والقرآن الكريم وهو يحكي لنا آثار هذه الحضارات ، يدعونا للاتعاظ والاعتبار بها ، قال سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {الرُّوم:٩} .

إن الإبداع المادي وحده لا يسمى حضارة ، فقد يكون وتكون معه الجاهلية ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ {الأنعام:٤٤ -٤٥} .

والناظر في الواقع التاريخي قديماً وحديثاً يجد أن أي حضارة قامت على الاهتمام بالجانب المادي للإنسان فقط ، وأهملت الجانب الروحي والديني تتحول إلى حضارة وثنية ، عبَّدت البشر للمادة ، وزادت من شقائهم ، وهذا ما تؤكده شهادات المفكرين وتقارير الإعلام صباحا ومساء .

إن الحضارة الغربية المعاصرة قامت على استبعاد الدين من الحياة ، وأخلصت للمادة وجعلت الرقي المادي هو هدفها الوحيد ، وليس ذلك وليد القرون المتأخرة كما يتوهم البعض، فالحضارة الغربية المعاصرة سليلة الحضارتين اليونانية والرومانية ، وقد خلفتهما في تراثهما السياسي والعقلي والحضاري ، وانطبعت فيها خصائصهما ، وهما حضارتان ماديتان وثنيتان في كل ما كان لهما من علم وثقافة وفلسفة ، وقد تصورا الله سبحانه في آلهة شتى ، وأقاموا لها التماثيل والمعابد ، ونسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادي ، كما تصورا المعاني المجردة في أجسام وأشكال فجعلوا للحب إلها ، وللجمال إلها ...الخ ، وقد أخلوا ديانتهم من الروحانية المعنوية .[٥٥]

(٥٥) الشباب المسلم والحضارة الغربية ،حسن سليمان ، دار الشروق ، جده ،١٤٠٥هـ ،ص٢٤ .

" وعلى كلٍ فقد انصرف الغرب إلى المادية بكل معانيها ، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر نفسية وعقلية ، وقام علماء وفلاسفة ينظرون للكون تنظيراً مؤسساً على أنه لا خالق ولا آمر ولا مدبر وليس هناك قوة وراء الطبيعة ، والمادة تتصرف في العالم وتحكمه ، وصاروا يفسرون هذه العالم الطبيعي ويعللون ظواهر وآثاره بطريق ميكانيكي بحث .. وانتهى بهم بحثهم إلى أن جحدوا كل شي وراء المادة "[٥٦].

وقد أدعى علماء الغرب أن المجتمع الإنساني المتحضر يجب أن يقوم على أساس العلم وما يفرزه من مخترعات وآلات بعيداً عن أساس الإيمان وتعاليم الأديان والقيم الخلقية التي جاءت بها الرسالات السماوية ، وبالتالي أصبحت حياة الغربيين والمتأثرين بهذه النظرة للحضارة حياة مادية بحته ، لا مجال فيها للخوف من إله السماء ، ولا مجال فيها لتعاليم الأنبياء ، ولا مكان فيها لمقصد أو غاية أسمى من المقاصد الحيوانية لحياة الإنسان .[٥٧]

وذلك أن العقيدة المدركة الواعية ركيزة من ركائز الإنسان ، تميز بها عن الحيوان فإلغاؤها أو إهمالها ارتداد عن خاصية إنسانية بحته ، ورجعة إلى الوراء وقد ظهرت آثار ذلك في حياة أبناء هذه الحضارة الغربية في هذا الجيل من البشرية .

فقد أنتجت أول ما أنتجت ذلك التمزق في نفس الإنسان ، التمزق بين حاجة النفس الفطرية إلى خالقها ، وحاجتها إلى الأمن الاجتماعي والسياسي والحضاري الذي يأبى الغرب في موجته المادية اليوم أن يربطه بالعقيدة في الله .

وأنتجت فيما أنتجت ذلك القلق النفسي والروحي الذي يفسد أعصاب الناس وهم يصارعون الحياة دون أن يجدوا قوة ثابتة يركنوا إليها ،، فالفرد تنهاه

---

(٥٦) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ،لأبي الحسن الندوي ، ص١٩٦ .

(٥٧) نحن والحضارة الغربية ، ابو الاعلى المودودي، مؤسسة الرسالة ،بيروت ، ط ٢ ، ص٢١.

الحضارة المادية من أن يلجأ إلى الله في شؤون حياته ، باستثناء دقائق في الكنيسة ثم يعيش حياته كلها في جوٍ يضاد العقيدة ، فيتمزق ويضطرب ويحتار.

وليس هذا وحده ، فحين لا يؤمن الناس بالله الإيمان الحق ، ولا يؤمنوا باليوم الأخر فليس في حسهم إذن إلا الحياة الدنيا ، ينتهبون لذائذها في الفرصة المتاحة التي لن تتكرر ولن تعود، ويتكالب الناس على متاع الأرض والجنس والقوة والسلطان فتنقلب حياتهم إلى عذاب

ويهبط الناس إلى مستوى أدنى من الحيوان في غرائزهم فالحيوان يملك ضوابط فطرية غريزية تقف به قبل نقطة الهلاك ... والإنسان بلا عقيدة يرتد أسوأ من ذلك الحيوان ، لأنه يصبح دون ضوابط أو أهداف ، قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ {الأعراف:١٧٩} [٥٨]

إن الإنجاز المادي الغربي المنشق عن الإيمان و العقيدة الصحيحة ، قد أندفع باتجاه إغراءات القوة والتسلط ، ونداء الأنانية العرقية ، ومضى أبعد من هذا باتجاه كل ما هو لا أخلاقي في السلوك البشري لكي يحول المنجزات والكشوفات المعرفية إلى سلاح يشهر بوجه الإنسان وليس لصالح الإنسان .

وهذا ما أشار إليه بعض الباحثين والمفكرين الغربيين كأمثال رجل القانون الفرنسي (بوازار) حيث يقرر أن التقدم العلمي المادي لا يكفي وحده ، ما لم تضبطه القيم الخلقية ، فتوجهه بالتالي لصالح الإنسان ، كما يقرر أننا بحاجة إلى إيمانٍ يجعلنا نفهم بطلان الرقي المادي وحده ، إيمان يبين لنا كيف نقيم توازناً بين حاجتنا الروحية والجسدية وبذلك ينقذنا من الهلاك الذي نندفع إليه برعونة وتهور"[٥٩].

([٥٨]) التطور والثبات في حياة البشر ، محمد قطب ، دار الشروق ، ص٢٥٥ بتصرف .

([٥٩]) إنسانية الإسلام ، لبوازار ، ترجمة د/عفيف دمشقية ، دار الآداب ، بيروت ،١٩٨٠م ، ص٣٢٤ -٣٦٩ بتصرف .

لقد اندفعت الحضارة الغربية بعين واحدة ، وبمرور الوقت أخذت تفقد قدرتها على إبصار كل ما هو روحي وأخلاقي وبما أن هاتين القيمتين ترتبطان بالوجود البشري ارتباطا قوياً، وتميزانه عن بقية الخلائق والموجودات ،فإن التقدم المادي الذي يمضي بعيداً عنهما لن يخدم الإنسان في نهاية الأمر ، ولن يؤمن عواقب الاندفاع الذي لا تضبطه قيم ، ولا توجهه معايير ، ولسوف تكون النتائج في المستقبل اشد خطرا ، لان التراكم المادي يتزايد بحسابات مذهلة ويبعد أكثر فأكثر عن أي كابح أخلاقي أو استبصار روحي، لمغزى الحركة ومعناها ، ومن ثم فإن أحدا لا يمكن أن يتهم مفكرا كـ(جورج سارتون) غرق في دراسة تأريخ العلوم حتى شحمة أذنيه ، وهو يحكم على التقدم المادي الخاص ، بأنه أمر مدمر وأنه ليس تقدماً على الإطلاق بل تأخر ، وذلك لان التقدم الصحيح يعني تحسين صحيح لأحوال الحياة ، وهو أمر لا يمكن أن يبنى على وثنية الآلات ولكن يجب أن يقوم على الدين ، والعلم الخالص ، وعلى محبة الله ، ومحبة الحقيقة والجمال والعدل ، إن المدنية ليست مرضاً ولكن من الممكن أن تتقلب شراً وفساداً بمجرد أن تفقد بطانتها الروحية وضوابطها الأخلاقية ".[٦٠]

ويمكن الإشارة إلى آثار الانفصام بين العقيدة الصحيحة وبين الحضارة المادية المعاصرة في ما يأتي :

أولاً : التيه الإنساني وفقدان الاتجاه : الحضارة المادية المعاصرة هي حاصل جهد الإنسان خلال القرون الخمسة الماضية . على أقل تقدير - من أجل سيطرة الإنسان على الطبيعة وتحقيق أكبر قدر من التمتع بها ، وهي امتداد للفكر الوثني الإغريقي الذي تأصل بعد ثورة الغرب على الكنيسة ، فأخذت الحضارة تنحو شيئا فشيئاً نحو الاعتماد على العقل في رسم الأهداف الكبرى للحياة وأطر البناء الحضاري بعيداً عن الدين والوحي .

(٦٠) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط ،جورج سارتون ، تعريب :د/ عمر فروخ ، مكتبة العارف ، بيروت ،١٩٥٢م ، ص٧٢ -٧٤ بتصرف

وقد أشار د. (عبد الكريم بكار) إلى أن منطلقات الحضارة الغربية المعاصرة تتمثل في :

١) اعتبار العقل الإنساني غير محدود وهو قادر على معرفة الطبيعة والسيطرة عليها وستظل المعرفة الإنسانية تتراكم بشكل مطرد وبلا نهاية .

٢) الموارد الطبيعية في الكون غير محدودة ولا يمكن أن تفنى باعتبار " المادة لا تفنى" .

٣) المجتمعات الغربية تمثل ذروة التطور ، ومن ثم فهي النموذج الحضاري الذي ينبغي أن يحتذى .

٤) العائد الإيجابي للتقدم المادي أكثر من العائد السلبي ،وعملية التقدم ليس لها غاية إنسانية أو مضمون أخلاقي محدد .

٥) التقدم مرجعيته ذاته ، ومن ثم يصبح ا هو الوسيلة والغاية ويتمثل في زيادة المنفعة واللذة "[٦١].

هذه المنطلقات القائمة على الوثوق بالعقل والعلم ومنتجاتهما بعيداً عن الدين، وما أفرزته من تقدم مادي غرست في نفوس الغربيين عقدة التفوق العنصري ، لكنها في الوقت نفسه لم تعد قادرة على تحديد الاتجاه الصحيح، فمنتجات الحضارة هي التي صارت تصوغ فكر الإنسان وشعوره ، فصار وضع الإنسان أشبه بعجلة تدور بسرعة والإنسان هو الذي يدفعها ويجري وراءها ويدور معها ، فهو الذي حركها في البداية ، لكنها صارت هي التي تحركه دون إرادة منه ففقد التحكم بها أو تلافي أضرارها .

ويظهر ذلك جلياً في الغرب اليوم في ظهور عشرات الملل والنحل المهووسة ، والحركات العنصرية والمتطرفة ، في ظل الفراغ الذي أوجده البعد عن الدين الصحيح." [٦٢].

---

(٦١) من اجل انطلاقة حضارية شاملة ، د/ عبد الكريم بكار، دار القلم، دمشق ،ص ٤٥ -٤٦.

(٦٢) المرجع السابق ص٤٨ بتصرف .

ثانياً : الإخفاق في الميدان الاجتماعي والأخلاقي :

تعد إخفاقات الحضارة الغربية في الميدان الاجتماعي والأخلاقي هي الأكثر بروزاً ، حيث شاع الزنا والشذوذ والعلاقات الجنسية قبل الزواج مما أدى إلى زيادة أعداد الأطفال غير الشرعيين، وكثرت حالات الإجهاض وتفكك الأسر ، وأهمل الآباء والأمهات تربية الأطفال فخرجوا من أيديهم إلى غير رجعة ، وانتشر الإدمان على الخمور والمخدرات حتى في أوساط المدارس والجامعات مما أفضى إلى ارتفاع معدل الجريمة بصورة شبة مطردة ، وساد الاكتئاب والتوتر العصبي ، وضعف التواصل الاجتماعي ، وساءت معاملة الكبار والعجائز ، وسادت روح الاستهلاك العارمة للتعويض عن الخواء الروحي ، وظهرت نتيجة لذلك الأمراض الفتاكة التي تحصد مئات الآلاف سنوياً . الأمر الذي يجعل المجتمعات تدفع ثمناً باهظاً للانهيار الأخلاقي والاجتماعي الذي أفرزته الحضارة المادية المعاصرة[٦٣] .

ثالثاً : سيادة النزعة العنصرية والاستعلاء :

إلى جانب إهمال الحضارة الغربية المادية للجانب الروحي لدى أتباعها وما أفرزه ذلك من ويلات وشرور، فقد كانت بماديتها البعيدة عن القيم الدينية الصحيحة أداة شر وفساد وبلاء على البشرية والأمم كلها.

إن الحضارة الغربية المادية التي تحكمت في مقاليد التطور الصناعي والتقني قد فجرت حروباً عدة دمرت البشرية ، بدءاً بالحربين العالميتين وانتهاءً بالحروب المعاصرة ، والتي تُظهر بجلاء رغبة الغرب في استعمار البلدان ونهب أموالها واستغلال ثرواتها وإذلال أهلها . وسرعان ما تحولت حركة الاستكشاف إلى احتلال وسيطرة جعلت طبقات من البشر تنهب خيرات الأمم ، وتستغل الشعوب ، فشاعت روح العنصرية والقومية من منطلق الاستعمار الغربي الذي أراد أن ينطلق من منطلق العنصر الممتاز الذي يملك القوة ويزدهي بالجنس الأبيض

(٦٣) المرجع السابق ص٤٩ -٥٠ بتصرف

صانع الحضارة ، كما هو واضح في كتابات (دي حوبينو) و(ماكس مولد) و(مادسون جرانت) و(فاشيرلابوج) و(هوستن) وغيرهم من دعاة العنصرية الغربية الذين أصلوا لتميز الجنس الأوربي ورقيه عما سواه من البشر .[٦٤]

أما الحضارة الإسلامية القائمة على العقيدة الصحيحة فإنها لا تؤمن بالنزعة العنصرية ، ولكنها تقوم على النزعة الإنسانية ، التي نقلت الإنسانية من أجواء العنصرية والتعصب للجنس واللون والوطن، إلى المساواة أمام الله وأحكامه، وفي كيان المجتمع الذي تعيش فيه ، حيث تسقط جميع الفوارق ويرتفع ميزان التقوى فقط .

رابعا : تدمير الكون والبيئة .

إن جوهر الثقافة الغربية اليوم قائم على قناعتهم بضرورة استمرار التقدم المادي والتقني ، هذا التقدم الذي يوفر الكثير من السلع الضرورية والكمالية لا يمكن أن يكون بدون ثمن ، ومن جملة ثمنه نفاذ المواد الأولية غير المتجددة ، وتلويث البيئة على نحو يجعلها غير صالح لاستقرار حياة المخلوقات عليها ، وقد أصيبت فكرة التقدم اللامحدود بإصابات لا شفاء منها حيث ثبت للجميع أن العقل محدود وأن العلم محدود ، وأن الرؤية الكلية ليست في متناول أ ي منهما ، فالإنسان يحرز التقدم في جانب لكنه لا يستطيع تقدير الأضرار التي سببها ذلك التقدم .

إن الغرب يزهو اليوم بإنجازاته الحضارية ، ويعيب على الآخرين تقصيرهم في عدم تمكنهم من اللحاق به ، دون أن يحسب حساب النتائج المترتبة على سلوكه الجنوني في ميدان الإنتاج والاستهلاك .

إن أكبر الأخطار التي يواجهها الإنسان اليوم نتيجة منهجية الحضارة الغربية في التعامل مع الأشياء يتمثل في نضوب الموارد غير المتجددة ، وارتفاع

(٦٤) من روائع حضارتنا ، د/ مصطفى السباعي ،ص٧٤.والإسلام نظام مجتمع ومنهج حياة ، أنور الجندي ، ص٢١٩.

درجة حرارة الأرض وانهيار النظام البيئي وانقراض الكائنات الحية بسبب التلوث الصناعي"[٦٥]

خامساً : انهيار الحضارات وشيخوختها :

إن هذا الكون قائم على الحركة الدائمة وقيام الحضارات وزوالها مرتبطة بسنن كونية وأسباب ، وقد لا تموت الحضارة ولا تزول كلياً ولكنا ربما هاجرت من بلد إلى آخر ، ومن أمة إلى أخرى ، وموت أحدى الحضارات كموت أحد الأفراد يفسح المجال لنشأة حضارة أخرى .[٦٦]

والحضارة الإسلامية حضارة فريدة في التاريخ ، قامت بأعظم قدر من القيم في تاريخ البشرية بأقل قدر من المظاهر المادية ، وكانت إحدى معجزات التاريخ في عمارة الأرض والإنسان ، وكان أهم ما يميزها عن غيرها من الحضارات أنها قامت بكل ما قامت به من عمارة الأرض وهي تستظل بظل العقيدة الصحيحة ، وتنطلق من منطلقاتها ، فتعمر ما تعمر من الأرض وهي تؤمن بالله وباليوم الآخر ، وتحقق مقتضيات الإيمان من قيم وأخلاق ومبادئ دون تناقض في حسها ، بين هذا وذلك ،ومع ذلك فقد أصيب هي الأخرى بالترف الذي يسوق إلى الانهيار بسبب فتور الهمة ، والإخلاد إلى الراحة ، وقبل ذلك الانحراف الفكري والعقدي .

فلقد كان الترف الذي أصاب الأمة وما صاحبه من رد فعل تمثل في الانزواء والانصراف عن العمارة المادية للأرض واتخاذ أسباب القوة بحجة الزهد في الدنيا سبب في انهيار الحضارة الإسلامية .

فلا الترف والإخلاد إلى الأرض مقبولٌ شرعاً ، ولا الانزواء عن عمارة الأرض مقبول كذلك ، فالترف أفسد الجانب الروحي والمعنوي ، والفكر المنحرف عن مقتضيات العقيدة الصحيحة والقائمة على فكر الإرجاء والطرق الصوفية،

---

(٦٥) من اجل انطلاقة حضارية شاملة ، د/ عبد الكريم بكار ، مرجع سابق ،ص ٤٥ -٤٦

(٦٦) الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة ، د/ عبد الغني عبود ، دار الفكر ،مصر ، ١٩٨١م ، ص

أفسد الجانب المادي والحسي في تعمير الأرض، وكانت النتيجة موجة من الانحسار الشامل في كل ميادين الحياة ، ميدان الفكر والعلم ، وميدان الأدب والفن ، وميدان السياسة والاقتصاد والحرب ، ميدان الإنتاج المادي والصناعي والزراعي ، ميدان السلوك الخلقي ، وكذلك – قبل كل شيء – في مجال العقيدة الصحيحة ، ومفهوم العبادة ومفهوم لا إله إلى الله .[٦٧]

وإذا كانت الحضارة الغربية المعاصرة ، قد بلغت ذروة التقدم العلمي والمادي الذي جعل البعض يرى أن ذلك التقدم سيمنع الانتكاسة وسيسعد البشرية ، إلا أن كثيراً من الباحثين والمفكرين الغربيين بدءوا يفقدون ثقتهم بهذه الحضارة المادية ، حيث لوحظ أنه منذ منتصف القرن التاسع العشر الميلادي قد صاحب ذلك التقدم حروب وويلات وفقداً للقيم الأخلاقية والروحية عند شعوب العالم المتقدم .

وهذا ما توضحه كتابات كثير من المفكرين والباحثين الغربيين أمثال : مالتوس ، و أوزفالد و شبنجلر ، وآلبير شفيتسر ، وآرنولد توينبي ، وغيرهم ، حيث يرون أن جوهر الحضارة يكمن في مقوماتها الأخلاقية والروحية ، وأن الحضارة الغربية مصابة بالخواء الروحي الذي يفقد الإنسان الغربي عناصر وجوده الإنسانية ، ليعيش حياة مادية فحسب ، ولم يعد لدى تلك الحضارة ما تعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم تصلح لقيادة البشرية وتسمح لها بالنمو والترقي الحقيقيين .[٦٨]

(٦٧) مفاهيم ينبغي أن تصحح ، محمد قطب ، مرجع سابق ، ص ٢٥٣ -٢٥٤ .

(٦٨) الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، دراسة مقارنة ، د/ توفيق الطويل ، التراث الإسلامي ،مصر ، ص٦٦ -٧١.

الخاتمة : النموذج الحضاري المطلوب : لا تخلوا أمة من الأمم من تسجيل بعض الصفحات في تاريخ الحضارة ، غير أن ما تمتاز به حضارة عن حضارة هو قوة الأسس التي تقوم عليها ، والتأثير الذي تحدثه في الحياة ، والخير العميم الذي يصيب الإنسانية من قيامها ؛ وكلما كانت الحضارة ربانية في مصدر قيمها ، عالمية في رسالتها ، إنسانية في نزعتها ، أخلاقيه في اتجاهاتها ، واقعية في مبادئها، كانت أخلد في التاريخ ، وأنفع للبشرية ، وأجدر بالتكريم .

والعقيدة الإسلامية الصحيحة ، هي وحدها القادرة على بعث الحضارة الإسلامية من جديد ، لأنها وحدها القائمة على أساس التوحيد المطلق الذي يصحح العلاقة بين المخلوقات والإله الحق سبحانه ، ويصحح العلاقة بين المخلوقات وبعضها على أساس من التكريم، والقيم الأخلاقية ، وعلى العالمية في رسالتها ، والواقعية في مبادئها ، والإنسانية في نزعتها ففي ظل العقيدة الصحيحة يكون البناء الحضاري مشبعاً بروح القيام بحق الاستخلاف ، وإعلاء كلمة الله في الأرض ، وتهيئة الظرف المناسب لأداء الرسالة ، وتحقيق فاعلية الإنسان في الكون وفق منهج العبودية لله سبحانه وتعالى في كل جوانب الحياة.

والعالم اليوم بحاجة إلى حضارة قائمة على أساس صحيح ، لأن الحضارة الغربية اليوم قائمة على إهمال كرامة الإنسان وقيمته ، واعتبار المادية النفعية هي الغاية الأساس .

البشرية اليوم في حاجة إلى حضارة تعيد إليها إيمانها بالله وبرسالاته وبلقائه وعدالة جزائه ، وبالقيم العليا التي لا يكون الإنسان إنساناً بغيرها ، ولا يكون للحياة مذاق ولا معنى بسواها.

البشرية اليوم في حاجة إلى حضارة جديدة تعطيها الدين ولا تفقدها العلم ، تعطيها الإيمان ولا تسلبها العقل ، تعطيها الروح ولا تحرمها المادة ، تعطيها الآخرة ، ولا تحرم عليها الدنيا ، تعطيها الحق ولا تمنعها القوة ، تعطيها الأخلاق

ولا تسلبها الحرية [٦٩] ، إن العقيدة الإسلامية الصحيحة هي وحدها التي تحقق التوازن في الحياة ، التوازن الذي يجعل الأرض تتصل بالسماء ، لينتج عنه حضارة تتعانق فيها المعاني الربانية والمصالح الإنسانية ، ويتآخى فيها العقل المفكر بالقلب المؤمن ؛ حضارة تقوم على القسط في الميزان بين الربانية والإنسانية، والروحية والمادية، والفردية والجماعية، والمثالية والواقعية، والمسؤولية والحرية، والدنيا والآخرة .

وإذا كنا نحن المسلمين نعيش اليوم حالة من التخلف المادي في مواجهة التقدم المادي لدى غير المسلمين ، فإن ذلك لا يعفينا من المواجهة الحضارية ، ومقتضى ذلك أن يواجه المسلمون اليوم الحضارة المادية الوثنية ، بمثل ما واجه المسلمون الأوائل الحضارة المادية الوثنية المتمثلة بالحضارة الفارسية ، والبيزنطية ، أي بالقيم الحضارية . لقد تمت المواجهة الأولى بين حضارة الإسلام وبين الحضارات الوثنية ، والمسلمون يكادون يكونون مجردين من أدوات الحضارة المادية وتنظيماتها ، بينما كانت فارس والروم في قمة الحضارة المادية التي لم يبلغها احد قبلهم في ذلك التاريخ ، وكانت الغلبة لحضارة القيم والمبادئ ، ولم يكن لحضارة المادة أصل تحتمي به .

إننا نملك ما لا تملكه الحضارات الجاهلية اليوم ولا غداً ، ولا في أي وقت ، نملك العقيدة الصحيحة ، والمنهج الصحيح الذي يصلح حياة الخلق ، وحين نحقق العقيدة الصحيحة في ذوات أنفسنا ، ونحقق المنهج الرباني في واقع حياتنا تجري سنن الله في الصراع الحضاري ، بانتصار الحق ، واندثار الباطل ، وتعود حضارة الإسلام من جديد ، لتخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا ، إلى سعة الدنيا والآخرة"[٧٠]

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون

---

(٦٩) الإسلام حضارة الغد ، د/ يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ١٤٩ .

(٧٠) مفاهيم ينبغي أن تصحح ، محمد قطب ، مرجع سابق ، ص ٣٦٨ .وما بعدها.